

الوافي في الوفيات

بعثتُ إليك رسالتي وفي علمي أنَّكَ الكميُّ الذي لا يجاريك ندٌّ والشجاع الذي أظهر حسن لوثتك للصدِّ والبطل المنيع للجار والأسد الذي لك الأسَل وجَّار والباسل الذي كمٌّ لخمِر الغمود بتجريدك عن وجوه البيض انحسار ولك المعرفة في الحرب ولاماتها والشجاعة وآلاتها وإليك في أمرها التفضيل ولديك علم ما لجملتها من تفصيل وها هي احتوت على المفاضلة بين الرُّمَح والسيف ولم تدر بعد ذلك كيف فإنَّ السيف قد شرَّع يَتَقَوَّى بحدِّه ولا يقف بمعرفة نفسه عند حدِّه والرمح يتكثَّر بأنا بيبه ويستطيل بلسان سنانِه ولم يثنِ في وصف نفسه فضلَ عِنانِه . وقد أطرقتُها حماك لتحكم بينهما بالحقِّ السويِّ وتُنصف بين الضعيف والقوي . أمَّا السيف فإنَّه يقول : أنا الذي لصفحتي الغُرَر ولحدِّي الغِرار وتحت طَلالي في سبيلٍ الجندَّة وفي إطلالي على الأعداء النار ولي البُرُوق التي هي للبصائر لا الأَبصارِ خاطفة وطالما لمعت فَسَخَّتْ سحَب النصر واكفة . ولي الجفون التي ما لها غير نصرٍ من بصرٍ وكم أغفت فمرَّ بها طيف من الظفر وكم بكت عليَّ الأَجفان لمَّا تعوَّضتُ عنها الأَناقَ عُموداً وكم جلبتُ الأمانِي بيضَ والمنايا سوداً وكم ألحقتُ رأساً بقدم وكم رعيت في خصبٍ نبتة اللّام وكم جاء النصر الأبيض لما أسلتُ النجيع الأحمر وكم اجتُني ثمر التأييد من ورق حديدي الأخضر وكم من آية طفرٍ تلوتها لمَّا صلَّيتُ واتَّقد لهيب فكري فأصليت فوصفي هو كذاتي المشهور وفضلي هو المأثور ؛ فهل يتناول الرمح إلى مفاخرتي وأنا الجواهر وهو العرض وهو الذي يُعتاض عنه بالسهام وما عندِّي عوض ؟ ! .

وإن كان ذاك ذا أسنَّة فأنا أُتَقَلِّدُ كالمنذَّة . كم حملته يدٌ فكانت حمَّالة الحطب وكم فارس كسبه بحمَّلاته فما أغنى عنه ما كسب . حدِّه ليس من جنسه ونفعه ليس من شأن نفسه . وأين سمر الرماح من بيض المصِّفاح ؟ وأين ذو الثعالب من الذي يُحمى به أُسود الضرائب ؟ وهل أنت إلاَّ طويل بلا بركة وعاملٌ كم عزلتك النبال بزائد حركة ؟ فنطق الرمح بلسان سنانِه مفتخراً وأقبل في علمه معتجراً وقال : أنا الذي طُلْتُ حتَّى اتَّخَذتُ أسنَّتي الشَّهْبَ وعلوتُ حتَّى كادت السماء تعقدُ عليَّ لواءً من السحُب . كم مَيَّسَل نسيم النصر غصني وميَّسَد وكم وهي به للملحدين ركنٌ وللموحِّدين تشيِّد وكم شمس طفرٍ طلعت وكانت أسنَّتي شعاعها وكم دماء أظرت شعاعها ؛ وطالما أثمر غصني الرؤوس في رياض الجهاد وغدت أسنَّتي وكأ نما صيغت من سرور فما يخطرن إلاَّ في فؤاد وكم شبيَّهت أعطاف الحسان بما لي من مَيَّسَل وضرب بطول ظل قناتي المثل وزاحمت في المواقب للرياح بالمناكب وحسبي الشرف الأسنى أنَّ أعلى الممالك ما عليَّ يبنى . ما لمع سنانِي في الظلماء إلاَّ خاله المارد من

رجوم السماء . فهل للسيف فخرٌ يطاول فخري أو قدرٌ يُسامي قدري ؟ ولو وقف السيف عند
حدّه لعلم أنّـه القصير وإن كان ذا الحلّى وأنا الطويل ذو العلى . وطالما صدع هاماً
فعداك هاماً وقصر عند العدى وألمّـ بصفحته كـلّـف الصدى وفلّـ حدّه وأذا به الرّـعب
لولا غمده . فهل يطعن فيّـ بعيب وأنا الذي أطعن حقيقةً بلا ريب ؟ ومن هاهنا آن أن أمسك
عنك لسان سناني ونرجع إلى من يحكم برفعة شأنك وشاني ونسعى إلى بابه ونبتّـ محاورتنا
برحابه . وقد أوردتهما المملوك حماك فاحكم بينهما بما بصّـرك اﻻ وأراك .
وقال وقد رُتّب معاليمهم على شطّـنوف : .

يا أميراً له من الجود بحر ... فهو جارٍ لنا بغير وقوف .
قد غرقنا في بحرهم وغمّـ ... فطلعنا بذاك من شطّـنوف .
وأنشدني لنفسه إجازةً العلامةُ شهاب الدين محمود ما قاله في بستان القاضي علاء الدين
الذي بالمنشأة ومن خطّه نقلت : .

إيوانُنّا للجِنان عنوانُ ... كأزّـه في سَناه كيوانُ .
حلو المعاني كلفظ مُنشئه ... يـَقصُرُ في الوصفِ غُمدانُ .
تقابلتْ إذْ عـِلاتٌ سُرُـرٍ ... من المسرّات فيه إخوانُ .
تركّض في العيونُ فهو على ... لُطْفٍ به للعيون مـَيّـدانُ .
يستقبل الرّـوّحَ من صـَباه ومن ... شذاه رَوْحُ سارٍ ورـَيّـحانُ